ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد لله الذي أنجـــز وعده • وأيد جنده وأدنا مـــن مـــــرادنا القطاف • وأصغى من مـرامنا النطـاف • وأسـنى لنا الالطـاف ونهض بجباله الى جبـالهم • وبـرجاله الى رجـالهم • وسـار لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخذ عليهم بذوي الاقـدام قدامهم • ووقف بصفوفه امـامهم • وصـد طـرقهم • وسـد فلقهم • ورد عن الزحـف فيلقهـم • وأغرى غرامهـم • وأضرى ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما للغيظ منهم غيض وقد وقد الحر ، واسـتشرى الشر • ووقـع الكر والفر • وللأوار تأجج • وللارام توهـج ، وللعدى شـعل • وللردى شغل • والسـعير واقـد • والهجير عاقـد • والآل شـايط غرار • ومالآل الشـيطان قـرار • والسراب طـافح • والظمـأ لافح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولأولئك الكلاب من اللهـب لهث • وبـالعيث عبـث ، وفي ظنهـم أنهـم يردون الماء • ويردون الذماء • ،فحـلأتهم الحـالة الحـالية • وغالتهـم الغلة الغائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة بنظارها • وذلك يوم الجمعـة بجمـوع أهلهـا المجتمعـة • ووراء عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قـطعت على الفرنج طـريق الورود • وبلوا مـن العـطش بـالنار « ذات الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضـابرين ، فـكلبوا على ضراوتهم • وشربوا ماني اداوتهم • وشفهوا ماحولهم مـن موارد المصانع • واستنزفوا حتى مـاء المدامـع • وأشرفـوا على المصير الى المصارع • ودخل الليل وسكن السـيل • وبـاتوا على شغف البحيرة بحيرة • وحيقـت ظنونهـم • ولم يبـق بهـم غير غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا أنفسـهم على الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا من ماء الفرند • واكتفوا بمـاء جـداول الأغمـاد مـن الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم الى القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء الأرواح نجاح النجاح.وشدوا حزم الانتخاء • وأعدوا حرم الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجترأت • ومن كل مايعوقها برئت • وهذا لسانه شاحذ • وهذا شهم موفق • وهذا لحده ممه • وهذا لحده منه • وهذا لسهمه مفوق • وهذا شهم موفق • وهذا مكثر للتكبير • ومنتظر للتبكير • وهذا مجر ضامر • ومعر بائر • ومغر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز المناجز • والمحاجز للحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج للسعادة • فياله تلك من ليلة حراسها الملائكة.ومن سحرة انعامها ألطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديع • ومن ظلام مملة بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مغافره مغفور • ومن ديجور مابعده لاشراق سنا النصر ديجور • ومن ألوية أولياء الله عقدتها بخمرها الحور • وقد قابل بها فيها ظلمة الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر يفوح • وفي صباحها الفتوح • فما ابهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم :« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والسنة مفروضة والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسبيل واضحة سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين متقاضي بالشفا عليلة • راع رياض الرضا رعيله • والله ناصر الاسلام ومديله .

ذكر الذشاب ووصفه .

وسهرا لسلطان تلك الليلة • حتى عين الجاليشية من كل طلب بأسماء رجالها • وملأ جعابها وكنائنها عريات نبالها • ومريشات نصالها • وكان مافرقه من الذشاب أربعمائة حمل • فنزل نص النصر منها على كل نصل • ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقي يأخذ منها من خلت جعابة • وفرغ ذشابه من تغالق تفتح من باب الجنة المغالق • وتواضيح تخرق المضاعف الذسيج• وناوكات ذوات ذكايات • وزيارات وزنبوركات • ونبل عنده نبأ لكل تبل • وذشاب في الأحداق ذي اذشاب • وجروخ الجروح • وخروج الروح • وسهام الأشهر سهام الحمام وتذفير اقرانها ..... الثعام .ونصل وصالها تقطع اوصال نافق بكل حمس صال.ومطالق نطالق بها سراح الأرواح . ومعابل تكثر منها صعاب الجراح . ومهرقات موفقات مسدات ...الحارق...(٥) المبردات وصائبات الى المقل صابيات . وذواجز تعيد السباع قنافذ .وتجعل للنجيع مناجع . وللمذون منافذ . وبوارق تمزق اهب المارق . وتطقم وتنتقم من المارد المارق . ومريشات اوكارها الحدق . وأوكائها الحلق . وفاصلات ناضحات اردية الردى . وناحلات فاضحات اوردة العدى . وقاضبات قاضيات بحكم الردى . وحارقات رقعات خروق الذواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات راشفات شفاء المقاتل . وقائفات قانعات مذفار المناصل . وماضيات حاظيات بالاصابة . وساعيات داعيات للاجابة . وحفيفات ثقيلات الجنابة . ومخيفات قمينات الذكاية . ومضميات مصممات الفتك . ومدميات ديمات البتك .وقريبات بعيدات المطار . وطالعات مطلعات على الأسرار . هاتكات الذماء . سافكات الدماء . مثريات الثرى . مفريات الفرى . جائرات بالجري . واثبات وثب الجراد. واريات وري الزناد . طائرات من الأكناد الى الأكباد . مرهفات من الهيف . مرعبات بالهفيف . خارجات من

طلوع الحنايا الى احناء الضـــلوع.مـــارجات لدى الروع الراد الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القـلاع . بـالغات الشعور . عالقات بالتامور . محلقات للدحور . غاربات الغروب في النحـــور . ورادات الصـــــدور الى الصـــــدور . قـــاطعات للحجاب . واقعات بـالعذاب . مـدمجات على الالتهـاب. مغنيات بالدماء على الطعـــان والضراب . ومـــراسيل تـــروى امـــام العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدى به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضـه مـن العين في السـواد ومعتدل تحذو له العـــوج .وبـــرق خـــاطف تحمس وراءهـــا المهوج . ومنزع لنزع المهـــج وقـــطع الود .اخـــطف مـــن الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى مـن الحريض . واشبى من الطرف الغضـيض . وأعمـل مـن السـمر والبيض . والســـلطان يأمـــر . والحنايا تـــــوتر . والمنايا تـــؤثر . والأعنة تصرف . والأســـنة تـــرهف . والحقـــائب تنعض . والمقانب تعرض . والجاليشية تشـمر . والجـاووشسية تنصر . والســـوابق تضـــمر . والســـوابغ تنشر. والصـــلادم تنضى . والصـــوارم تنتضى . والســـلاهب تجمـــــع . والجنائب تمرح . وأيم الضراء تنساب . وغيم الغمـاء تنجـاب . والذفـوس مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن اللعب . والعزم غالب باللغب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حـطين وهـو يوم السـبت الخـامس والعشرون من شهر ربيع الآخر .

وأصـبح الجيش على تعبيتـه . والنصر على تلبيتـه . ووقـف العسكر في قلبه وجناحيه وميمنتـه وميسرتـه أطـلابا متقـاربة متباعدة . وأنجادا متعاهدة متساعدة و آلافا متضافرة . وأضعافا متضاعفة متظاهرة . وبـرز رجـال الجـاليش . وارتجـز دعاء

التحريض والتحـــريش . وصـــفا لبـــاس الناس على الكمـــي الكميش . وشرعت ثعـــالب الشرع في رعي الحشـــاشات رعي الحشيش . وتطاير في الجو على ســنابك الهمـــام جـراد النصـــل المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجـب الأرواح للتقييش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . وأسرعت اعنة عتاقها . واشرعت اســـنة دقـــاقها . وأطـــالت رقـــاب رقـــاقها . وأبـــانت غايات ســـياقها . وأعلت رياحـــات احتفـــالها . وأحلت مـــذاق مـــذاقها . وأغلت أوســـاق أوساقها . وأغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهام اعراقها . ومدت ظـــلال رواقهـــا . ودارت كؤوس اصـــطباحها للاعتبـــاط باغتباقها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فـرق مذهبنا لساعة افراقها . ذلك والفـرنج راكبـة الجـرد . متـراكبة المدد . متكاثفة العدد . آخذة طـريق البحيرة.بـطوارق الحيرة.قـد احاط رجلها بخيلها . جـارية الى القـرار بسـيلها . أمـــواجها ملتطمة . وأفواجها مزدحمة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتهبـة ملتهمة . ونفعها مديد . ووقعها شديد . وحـدها حـديد . وجـدها جـديد . يأمنون المذون . ويجذون الجذون . ويجـرون الشـــمول والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهم صـدنا . وردت سـيولهم بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبـالنا . وشـوتهم بنيرانها نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا سـلوك نهـج الموت . وأنه لا مـــطمع في البقـــاء الا بـــاستحلاء مـــطعم الفوت . والسلطان قد رفق قلبـه . ووقـف الى الوثـوق بنصر الله قلبه . وهو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضـهم على حظهم من الفتوح او الحتوف . ويعدهم من الله بنصره المألوف . ويغري المئين بالألوف . وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدون .ويصدون العـدو ويردون . وكان له مملوك اسمه مذكورس من اقمـار الفلك . ومـن شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قـد علقته الحور العين لحسنه.واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القيول في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواعب الأتـراب يشـتقنه في جهات عدة . وكان الله برأي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والحور الحسان . وكان ظريفا طريفا . نظيفا عفيفا . طاهر الذيل للنزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق . وركب عذقه في الرق . وألهمه نصرة الحق . وهو راكب امام العسكر . شائم غمام العثير . نامق عرف الكوثر مستعفر تحت المغفر . مستنير في سنا الستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق في الأقدام . فوثب بحصانه وثوب الضرغام . معتقلا الى الردى ربينيا . ومشتملا للترف مشرفيا . وممتطيا للاستقامة اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها ميدانه . وشكر لها احسانه . وذكل عنها اقرانه . ونفذ طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجذبه لقوة رأسه حصانه . وخلا خلانه . وخانه اخوانه . فلما رآه الفرنج وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفوا عليه . وزحفوا اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مكانه . فأثبت في مستنقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأسه ظنوا انه احد اولاد السلطان . وزعموا ظهور الكفر على الأيمان . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جوار الرحمن في غرفات الغفران . وأما عساكرنا فإنها لما شاهدت استشهاده وجلده وجلاده حميت حميتها . وأبت غير الغيرة ابيتها . وخلصت لله في ارداء اعدائه بنيتها . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي اهل النار بنار ضرامها وتلفحهم بلوافحها . وتقدحهم بقوادحها . وتسقيهم بجداول مناصلها . وترميهم بجنادل صواهلها . وترديهم بأردية رداها . وتغريهم بما يغرون من المذون عن مناها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمور من الضوامر بجبالها . وتموج في البواتر في بحارها . وبرح بالفرنج العطش . وأبت عثرتها تنتعش . ولاذت تتشور وتتشوش . وتتحرى وتتحرش . وتتوشح بالضراء والضراب وتتوحش . وتنشط على أنها تبطش . فتجد الطرق مصدودة . والسبل مسدودة . والمسالك محدودة والمهالك موروده . وكان النسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فرمى

بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش . فتأجج استعارها . وتوهج أوارها . فبلوا وهم اهل التثليث من نار الدنيا بالثلاثة الأقسام : في الاصطلاء والاصطلام نار الضرام ونار الأوام . ونار السهام . فخلصوا من ورطة الاحتواء والاجترام . وضايقت ذمائهم دماء الضراغم . وعارضت صقور بأستهم القشاعم . ولقيت العظائم العظائم . ودارت بمساعير الجحيم دوائر السعر الحواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بها وأزعجوا . وهاجوا وأوهجوا . وماجوا وموجوا وأجوا وأججوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسينا الرواسخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . واراه غيه انه متورط في غيايته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السقم . وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واوهت اصلابها صلبانهم . فافكر القومص كيف ينجو ويتخلص . فقال لهم : انا اسبق بالحملة . وافصلهم من الجملة . فاجتمع هو وموازروه . وجملة من المقدمين هم مضافروه . وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان . وتوامروا على انهم يحملون ويلغون الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بنفوسهم . وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفوا ان القومص اخذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة . وهذوا وهاذوا ثم اشتدوا وما لانوا . وثبتوا على ما كانوا . وقالوا : اذما فر في شرذمة هم شر ذمة . وعصبة قليلة بغير عصبة . واستقبلوا واستقتلوا . واستلحموا وحملوا فما وجدوا للنجح نهجا . ولا اصابوا لمن جاء لمصابهم شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب . وخاضوا فيها غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغدر . بل طاعة القدر . واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء . وصببنا ماء الحديد

للاطفاء . فزاد في الاذكاء . وافترت مباسم البيض من استعبار عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهندية في الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام . وازللنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا ملتزا . ونقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكنافهم . واحتست انية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلأ الكلا . واكتست عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفريق المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا وبل الوبيل . فالهب عليهم يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيظ . ومنابع الكفر تفيض . وملاحم الاسلام تغيظ . والنفوس تقع . والرؤوس تطير . والقضب تدير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشرك تغور وتبور . واسد الوغى تجول وتجور . ومراجل الراجل والفارس تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورست منا الهضاب حول ذلك التل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى بطون الذمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب والذئاب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك . وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغلبت غلبه . وقلب قلبه . وخذل حزبه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كماته وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملأهم جهنم . وملك عليهم الصليب الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب سليبا . ورقيب الردى قريبا . ايقنوا بالهلاك . واثخنوا بالضرب الدراك . فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون والوثوب يخفون . وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون . ويردون وهم لايدرون . ويعقلون وهم لايعقلون . وقرم بقوي القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاعناق وتارة يغلها . واونه بالبري يعـرها . ومـرة بـالسبي يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهـم وابرذسهم . فتم اسر الملك . وابرنس الكرك . واخي الملك جفـري . واوك صاحب جبيل،وهنفري بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية ، واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن الاسبتارية ومعظمها . ومن البارونية مـن اخـطا بـه البـال لما عز الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس ° وقوي بنا الرجاء ومنهم اليأس ° وعروا من ملابس العز . وضفا عليهـم مـن ملابس الصفار اللبـاس . وتعـرضت للسـوء في السـوافي طلول حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد بهم حكم القضاء لم يجـدهم الاحتـراز والاحتـراس . ورسـفت وارسفت الانفس والانفـاس . وانعقـد الاجمـاع بتحليل تـركيب جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاسـلام بـكسرهم . وقتلوا واسروا باسرهم . فمن شاهد القتلى قال : ما هناك اسـير . ومن عاين الاسرى قال : مـا هناك قتيل . ومـذ اسـتولى الفـرنج بساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل . فالله عز وجـل سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهداه من التوفيق لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المسـلوك . ونظـم له في حتـوف اعدائه والفتوح لاوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر الأبر . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو والسوم . غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القـدسي مقـدمة . ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الوقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم مـا دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى قدمه كأنه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمـى اليه غير مفيد . لكن فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يغنم من خيلهم ودوابهـم ـ وكانت الوفا ـ ما هو سالم . وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولامـورد الـروح سـائبة

ولالنار الروح شابة . وغذمنا ما لا يحصى من بيض مكنون وزغف موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الفتح كل اقليم مصون . وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون . واستخرج من كنز مدفون . و .... حاصلة . و ...(٦)تحقق اهله . ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من عدة ورحال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجاءنا هذا الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال : لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفروا بجناح غادروه محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي المواضع البعيدة من العمارة ليتوصلوا الخارجين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال التي احضرتها . وقد حرمت على المفسدين الحركة وحظرتها . فتاملتها واذا جمالي بأعيانها . فشكرت همته الكريمة على احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التي حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تزل الثغور بسداده مسدودة والخطوب بصدده مصدودة . والظلال باشتماله ممدودة . والرعايا بسياسته محروسة . والبلاد بحراسته مسوسة . ورايات الكفر بذكاياته مذكوسة . وايات الدين بهدايته ماذوسة . والمواضع معمورة . والمنافع موفورة . والصنائع مشكورة . والشرائع مشهورة .

وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم وعرفتهم وعرفتهم تذكرت معرفتهم . وتكدرت صفوتهم بعد الايام السلطانية . وانقلبت سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صادقوني لصدق الحاجة . وصادفوني مقدما الذب عنهم تحت العجاجة . غائصا لاستخراج جواهر مقاصدهم لجج اللجاجة . فلما استغنوا عني جهلوا معرفتي واذكروا عارفتي . وهذه سنة اخلاء الدنيا في دين الاخلال . وملة الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فما ابدعوا غريبا وما ابعدوا قريبا.ولا اعجبوا باديا.ولا ابدوا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

للعماد الأصفهاني الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد مايبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن الرشد مايكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم . ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه إلينا بأنهما حادث وقديم . ونستزيده ونستديمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذي بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم)(فصلت : ٣٤) . والحمد لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله الموفور . وقبل منا عفو خواطرنا المنزور . فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة . ولايطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد الساقه . وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدمنا ينتاب منتابه راجيا وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضمير ذكرنا.وباتت سارية إلينا لاطيفا بل حقيقة على ذوم فكرنا . ثم إن الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا . ومتجرعنا ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمجما . وتارة يحيط به قولا مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب يذفذ ذور الذكر من ظلمات ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات مسموعه . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه مسارحه . وكيف لايعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنا لانرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا . فنصل إليه صلاتنا ونؤدي إليه ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به . فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترابه .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولاصدق المراد . وأين من أخبر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأنك بالواد . فمن كان في روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح . ونصلي على آله وأصحابه ولاة الحق . وقضاة الخلق . ورتقة الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفرق . وفتحة الغرب والشرق . منهم من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هامها . وأخمد عبدة نيرانه أن يطعموها حطبا ولو وصلت إليهم لأكلتهم . وأخمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشداء على الكفار . ومنهم الأسداء إذا زاغت الابصار . ومنهم الساجدون الراكعون . ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهم نحن أهل الزمن الآخر . وقد سلم علينا سلام الله عليه في زمنه الحاضر . وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنما نرد عليه تحيته والبادىء أكرم . وإنما نرجو شفاعته بالمودة التي قدمها والفضل للاقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون الى الغرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلي السير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب أن يقول . فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التي نوردها . وانما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى . فلا أمة من الأمم ذوات المال . وذوات الدول . إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . يذقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصب به معالم الأعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام الأخر ذكر الأول . ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الأصلاب طويلة السرى . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقادم . لآدم . وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم . ذرياتهم . لما أراده من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره . وقبل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة النشر . وتقبل في واحدة من الأطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار دهرا بعد دهر . وثوى وأنشر في الف قبر . وإنما كان من الظهور في ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها . وجهل ماوراء صعوبة الأيام من سهولتها وماوراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بنو آدم بيومه . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه . ثم أرخ الأولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها . ثم بالعام الذي بلبلل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلشاه ، ومعني هذا الاسم ملك الطين . فإليه ترجع الفرس بأنسابها . وعليه ينسق عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج إيوانه . واطفأ نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلو بطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره . وأرخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم . وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيل . وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق واخراجهم عن الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنقلوا منها . وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

وهي حرب البسوس ، ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين سنة . ثم أرخوا بعام الخنان قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتيان في عام الخنان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخالق وعام الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربع حروب ذكرها المؤرخون . وأسندها الراوون ، وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام . وأظهر الله على الأديان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم . فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلها جب الأنوار للظلم . ودفع الله الناس بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهيأته يوم خلق الله السموات والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي ما ولدت الليالي مثله من بنيها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمدها بالقيامة معذوق . وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق . وتسفر عن أهلتها داديء المداد وتنشق . وهي وإن كانت هجرة الاسلام إلى القدس

ثانية . فقد كان اذنني عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهـذه الهجرة أبقى الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقـى الكرتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قـالت كأنه كسر ثـم جبر . والحق أن نقول إن أطـول الحياتين حياة المرء إذا مـات ثـم نشر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتـح أول والعهد بالرسول صـلى الله عليه وسـلم فغير بعيد . والوحـي ماكاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التـي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجـزاته أوثـق بخبـره في الفتح منها بعيانها . ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بـالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردمه . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الارض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر . والفـرس يومـئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تنوعت أشكاله الرائعـة . ولاطبعـت سيوفه هذه القاطعة . ولانسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لاتعرف إلا مشيدة لامجلدة . والمنجنيقات لايتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لاتتراجم بالنيران المذكاه. والأسـوار لاتتناطـح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يسـاقون إلى الموقف حفـاة عزلا . وكانوا أحـرص على الموت منا على البقـاء . وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بـذلك اللقـاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قـد وهـن العـظم منه واشـتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمائة وهـي للملك المعتـرك . وكثـرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجـديدان ثـوبه وكان القشـيب . وذوى غصـنه وكان الرطيب . ونصـلت كفـه وكانت الخضيب . وطـال الأمـد على القلوب فقسـت ورانت الفتـن على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في الضلال . واستبضعوا للقتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن تري استباحة ورعيه . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولامسح . واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلا مزرور الشفاه على القطوب بلا بشر ولامزج . شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون . زرقا كأنما عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم . واشتعلت نار جهلهم في فحم ذنوبهم . تستعيذ المردة من مردتهم . ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ . جهنميون كلامهم شرر وأذفاسهم شواظ . (لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف : ١٧٩) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والا فالحجارة لاتستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم تخلع الاظلام . وزالت أيامهم الأيام خبالا فتنازع الناس طرائف الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨) و(كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام تمخض وتمطل بالزبدة . والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدوا له عدة . والعذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفى بلفظة النبوة لوما صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها . وأظهر الآية التي لا أخت لها فذقول هي أكبر من أختها . أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها . وجاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد . ومالكها الذي له السماء خيمة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد . والشمس دينار . والقطر دراهم . والأفلاك خدم . والنجوم أولاد . صلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق اليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهو سبحانه أكرم بالذوال . منا بالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا أحسن الله إليه فقد قال (إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) (الكهف : ٣٠) وأن قلنا جزاه الله بالاحسان فقد قال : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قال : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (العنكبوت : ٦٩) وأن قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل) (آل عمران : ١٩٥) وإن قلنا لاجعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قال : (ما على المحسنين من سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل
في معاليه قد كمل

لايسل فيه سائل
سبق الجود ما سأل

وليصحح تأملا

يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجاد إلى أن لم يبق مال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل . فلا كفتح على يديه فتح وما هو فتح واحد ما هو إلا فتحان فتح والدم ذائب وفتح والذهب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جيدا وزاد لأنه ضرب بالسيوف التي كسرها ثم ضربها . واستوعب جوده ما ولدت المعادن ذهبا وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع تم نهبها فوهبها . فكل معاد معادى إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسود إلا هذا المداد . (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجود من قبل المدائح .

الناس أكيس من ان يمدحوا ملكا .

ولم يروا عنده آثار احسان

وإنا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين آمنوا ان يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسنين لأنا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بانه فروقه . ولسنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقول للقلم إذا فاخره السيف (إن شانئك هو الأبتر) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولست ببعيد في تقييد هذه المفاخر . وتشييد هذه المآثر . من رجال الطعن والضرب الذين

فتحوا بين يديه . واوجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجبه وأوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم أخطى وأخطب . ومن سهامهم انجي وأنجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب . ومن جيادهم أسرى وأسرب . ومدادي من دقعهم أغلى وأغلب . وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد . وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها وآثاري من الذكر لاتخمل ولاتخمد .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته ويذقطع صيت الأثر باذقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت الأيام سحبا . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا . فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لاقول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية . وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى ايوان كسرى وسينية البحتري في وصفه تجدوا الايوان قد خرت شعفاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح بين الأوصاف الغالية . ونناوب بين السمات السامية . للاشارة إلى من ينبه على مسماه . ويذوه بسيماه . فأما من يقول الله لاسمه أنت من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشيد بالله أبي جعفر هرون بن الامام المهدى بالله أبي عبد الله محمد بن الامام المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهي الأيام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاريها للقضاء مضاه . فما أجلها فضلا وأفضلها جلالا . وأقبلها جدا وأجدها قبالا وأقربها ندى ونوالا . وأبعدها مدى ومنالا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى جني رفدها . وأفغم ريا رياض فضائلها . وأفغم حيا حياض فواضلها . واسح سماء سماحها أمطارا . وأصح جناح نجاحها مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته . وداعي نصرته . ووليه الطائع . وسيفه القاطع والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . فرأيت إبداء ميامن هذه الايام الغر على الآباد بغرر الآداب . وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب . وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبها على جلالة قدره . وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضي الأجل الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها . وأنشأت رياض بسحبها . وما شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي عهدته . وما عنيت إلا بايراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على أس ما تبينته فبينته.وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط . وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة:وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبلاد . يستدعي من جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد . واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود . واستحشاد الحشود . وإصحار الأسود . واحضار البيض والسود . مضيء العزم ماضى العزم . صائب السهم ثائب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود . وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى . وأقام علي ارتقاب اقتراب الحجاج . وقد رتب الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج . لاسيما ابرنس الكرك . فانه كان حريصا على الدرك . ناصبا شر الشرك نصب الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقد قضوا حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخرجوا عن فرضهم . ودخلوا إلى أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتظر السلطان وصول العسكر المصري المستدعى . ورعى منه حصول العدد المسترعى . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده . فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين عليا . ولم يزل مكانه عنده عليا . أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء . وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحرب . ويحرق . ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي ألحق الموجود بالمعدوم . وأتي بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع . واستأصل الأصول والفروع. حتي أقوت من الأقوات . واستعرت الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت آجال الأرزاق . وانحلت عرا الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلأ من الكرد والترك . وسار إلي الشوبك فأسار به شوبا . وألحفه من عريه ثوبا . وأخلاه من زرع ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع . وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال . وداس الغلال . وقشر الثرى وبشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون مسكونها . وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها . فقد عدم ليلها المصباح . وصباحها الاصباح . ووصل عسكر مصر فتلقاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتره . والخضرم الضرم . والعرمرم العرم . واللهام الملتهم . والجيش الجائش . والترك والأكادش . والجذود والبذود . والاسود السود . والفيالق الفوالق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدى . ظامئات إلى ورد الوريد وما أحسن حلي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يستنهضه . والعز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقدر يحركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره . والاسلام قد مت بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الأمر إستمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهز الفرصة واحرز الحصة . وانتحى وانتخب الاجناد الانجاد . وجرد الجرد واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجك المقدم المقدام . والهمام الهمام . والأسد الأسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي ، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي . فساروا مدججين . وسروا مدلجين . وصبحوا صفورية (فساء صباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرح اليهم الفرنج في جمع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسابريات سابغات . والداوى دوي وللاسبتاري هوي . والباروني يقدم على البوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجز عجاج العجاج . وانفض الفضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قايماز النجمي في صدورهم . وأشرع الأسنة الى نحورهم . وروى اللهازم من تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكترث بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدرم بالوجه الأبيض . والعزم الأنهض . والجد

الأجد . والحد الأحد . وانجلى الغبار . وقد عم الفرنج القتل والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلك محاص . واخلفت رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه النوبة بلا ذبوة . والهبة بلا هبوة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت النفوس إلى هذه البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة بالنصر . وأحسنت الالسنة في الشكر . هذا العساكر في كل يوم يفدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من الذكاية في العدو يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال بالنجح والدرك . وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا . ففصت بسيول الخيول الوهاد والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر . ولا أكرث للكفر ولا أكثر . وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح : ٤) . في ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم كالليل عجاجا . وليل كاليوم ابتلاجا . ومناصل بالمنى صلت . وقساطل بالقسي طلت . وفيالق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في صدور الاغماد تقلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار المنايا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض . وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث . وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم . وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب لانحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن حزبهم مخذول . وأن غربهم مفلول . وأن حدهم مثلوم . وأن جندهم مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حينئذ خلف مذبعث . وحلف منتكث . ووقوع ذفار بين الأذفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استدنوا

حين حينهم . سعوا في إصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص . ليتقمص له بالود الأخلص . ورمى عليه بنفسه . واستبدل وحشته بأنسة . فاصطحبا بعدما اصطلحا . وأصحبا بعد ما جمحا . وتزاور الفرنج وتوازروا . وتآمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى دنا منه الوها هوى . وعود إذا عاده الأذى ذوى . فالمسيح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافنا صفاحنا . وفي لوائنا اللاواء . ومع أودائنا الداوية الأدواء . وطوارقنا الطوارق . وبيارقنا البوائق . وسيف الاسبتار بتار . ولقرن الباروني من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعاب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاقد والمعاقل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسلموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا . وطالما ناصفونا وما صافونا . وهادونا وهادنونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا . متدبر متدربا . هذا صلاح الدين لايقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغه والمفاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالفه ونقبل شرائطه . فقال له الملك :أنت قد قلبتك الآفه . وفي قلبك المخافه . وأنت الخور رخو . والخشية حشو . وأنا لابد أن أصدمه وأصده . وأكدمه وأكده . وأراوده حتي أرده . وأقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالحشد والحشر والطي والنشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولدا مجذوما. وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل داؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الفرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفخوا في ضرمه • وتسمنوا بورمه • وصحوا بسقمه، ورقوا في سلامه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • وأقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجذا (١) ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حمامه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطرك والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التطاول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفله مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لايستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبتها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بنفسه ، واستولى على جنسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الفرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه • وعاش رجاءه بعد يأسه • وراش غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليسه بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه • فما اجاب دعوته

مرتمى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما يقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالى مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واذفق النخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال الذشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية للتأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • واذس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • والجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

المرتبة • والمذاهب المهذبة • والسلاهب المجنبة • والصوائب المجعبة • والقواضب المقربة • والثعالب المذربة • واللهاذم الهاذمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على خسفين ، وقد ادنى الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر وكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة • والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة • والقلوب بالاخلاص عامرة • والانفس للانس مسامرة • والاقدام بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبح سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانة ، بعزم الصيال وعز الصيانة • واحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط • وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجا على امواج • وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج • واعاد الاقحوانة رياضا نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات كأشجار البساتين • ورايات صفر تخفق بعذابات الياسمين • والوية حمر كشقائق النعمان • ومرضوعة زغف كالغدران • ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقحوان • وجبب ترائك على بحور الدارعين • وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين • والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتام الثائر سروج السريجيات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم • وحاطوا بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاوباش • ورتبوا الجيش • وثبتوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل • ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب الصلبوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في ذوادي اقاليم اهل الاقانيم • وصلبوا الصليب الاعظم بالتعظيم ، وماعصاهم من له عصا • وخرجوا عن العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهاء خمسين الفا ويزيدون • ويكيدون مايكيدون • قد توافوا على صعيد • ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمون • لايرومون حركة ولايريمون • والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم • ويراميهم • ويذكى فيهم • ويتعرض لهم ليتعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله • فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبرز اليهم القتل في مضاجعهم • وعاينوا مقام صارعهم • في سوقهم الى مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبنوا عما له تشجعوا • فرأى السلطان ان يطيب ريه • من طبرية ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتها • فجر على الاردن اردان الربينيات • واطلع النقع المثار من البحر بحوافر الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات • فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابره • ان يقيموا قبالة الفرنج • ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصاف بادروا الى الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب . وثبوا بهم وثوب الاسود بالارانب . وان قصدوا طبرية لصونها وان يكونوا في عونها . عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خواصه ، وذوي استخلاصه . واحضر الجاندارية والذقابين . والخراسانية . والحجارين . واطاف بسورها • وشرع في هدم معمورها . وصدقها القتال . وماصدف عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهو يؤم الخميس . واخذ الذقابون الذقب في برج فهدوه وهدموه . وتسلقوا فيه وتسلموه .

ودخل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العدو معتكر . وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيها . ولما سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد جلده . وسمح للفرنج بسبده ولبده . وقال لهم لا قعود بعد اليوم • ولابد لنا من وقم القوم • واذا اخذت طبرية اخذت البلاد • وذهبت الطرائف والتلاد • ومابقي لي من صبر . ومابعد هذا الكسر لي جبر وكان الملك قد حالفه . فما خالفه . ووافقه . فما نافقه . وماحضه فما ماذقه ووادده فما راده . وواعده فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحينه . واتباع غيه . واشياع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبرته . ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا . وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا . وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبوا . وشدبوا النار . ولبوا الثأر . وقدموا للنزل بالدار البدار . وذلك يوم الجمعة رابع عشري ربيع الاخر. فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه .

وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل المخطوب . وجاءنا ماذريد . ولنا بحمد الله الجد الجديد . والحد الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صحت كسرتهم . وقتلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع . ولاعن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم الجمعة رابع عشري شهر ربيع الاخر والفرنج سائرون الى طبرية بقضهم وقضيضهم . وكانهم على اليفاع في حضيضهم . وقد ماجت خضارمهم . وهاجت ضراغمهم. وطارت قشاعمهم . وثارت غماغمهم وسدت الافاق غمائمهم . وشاقت ضاربيها جماجمهم . وهم كالجبال السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة . وافواجها مزدحمة . وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجو . وضوى الضو . ودوى الدو . والفضاء مذفض . والقضاء مذقض . والثريا قد استزار الثرى . وجر نيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحوافز للارض حوافر . والفوارس اللوابس في البيض سوافر . وذئاب النياد واجلاد الجلاد قد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فرتب السلطان في مقابلتهم اطر اطلابه . وقصر على مقاتلتهم ارابه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء . ومنع ذمامهم على الذماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ . والقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة . فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الاسلام للكفر مقابلا . والتوحيد للتثليث مقاتلا . والهدى للضلال مراقبا . والايمان للشرك محاربا . وهيئت دركات النيران . وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . وذفر الذفير غراب الغبار . وانتبهت في الجفون الصوارم . والتهبت في الضوامر الضوارم . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار . وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار . ورنت القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس الجلاد . وبرزت البيض من ملائها في الملأ عارية . ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية . فرجا الفرنج فرجا . وطلب طلبهم المحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى مابأيديهم من ماء الفرند ماء . فشوتهم نار السهام وأشوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية واصمتهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا . وناشبهم الذشاب فعادت اسودهم تذذ . وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا . وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وقرشتهم البلايا . ورقشتهم الرزايا . وصاروا للردى درايا . وللقضايا رمايا . ولما احس القومص بالكسرة . حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطلبه يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق . وافلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ردة مردودة . وغاب حالة حضور الوعي . ونابه الرعب الذي نوى الهزيمة به وماونى . ثم استجرت الحرب . واشتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم . وفلت حدود الرماة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشغلوا عن اصل الحياة وفرعها . وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها . واسر الشيطان وجنوده . وملك الملك وكذوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية . واحضر الملك كي واخوه جفري . واوك صاحب جبيل وهنفري . والابرنس ارناط صاحب الكرك . وهو اول من وقع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لاعجلن عند وجدانه عدمه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه . وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له:كم تحالف وتحنث . وتعهد وتنكث . وتبرم الميثاق وتنقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال الترجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وماسلكت غير السنن المسلوك . وكان الملك يلهث ظمأ . ويميل من سكرة الرعب منتشيا . فأذسه السلطان وحاوره . وفتأ سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبه . وامن قلبه . واتي بماء مثلوج ازال لهثة وأزاح من العطش ماكرثه . وناوله الابرنس ليخمد ايضا لهبه . فأخذه من يده وشربه. فقال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أذنا • فلا يوجب ذلك له مني أمنا • ثم ركب وخلاهما • وبنار الوهل اصلاهما • ولم ينزل الى ضرب سرادقه • وركزت أعلامه وبيارقه • وعادت عن الحومة الى الحمى فيالقه • فلما دخل سرادقه • استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه • وحين صرع . امر برأسه فقطع وجر برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداءته اودته . وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ونبازند حياته ووردها عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكانوا اسودا فعادوا من الذقد . فما افلت من تلك الالاف الا احاد . ومانجا من اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلأ الملأ بالاسرى والقتلى . وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجذوب . وحطت حطين تلك الجيف عن متنها • وطاب نشر النصر بنتنها • وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه • بالعراء عراة • ممزقة بالمازق • مفصلة المفاصل • مفرقة المرافق • مفلقة المفارق • محذوفة الرقاب • مقصوفة الاصلاب • مقطعة الهام . موزعة الاقدام .مجدوعة الأناف • منزوعة الاطراف • معضاة الأعضاء • مجزأة الأجزاء • مفقوءة العيون مبعوجة البطون • مخصوبة الضفائر • معضوبة المرائر، مبرية البنان• مفرية اللبان مقصومة الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة النحور . منصفة الاجساد .مقصفة الأعضاد • مقلصة الشفاه • مخلصة الجباه • قانية الذوائب • دامية الترائب• مشكوكة الاضلع مفكوكة الاذرع • مكسورة العظام • محسورة اللثام • بائدة الوجوه • بادية المكروه • مبشورة الابشار • معشورة الاعشار • مذشورة الشعور• مقشورة الظهور • مهدومة البنيان • مهتومة الاسنان • مهرقة الدماء • مرهقة الذماء • هاوية الذرى • واهية العرى • سائلة الاحداق • مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللبات • عديمة الارواح • هشيمة الأشباح . كالاحجار بين الاحجار . عبرة لاولي الابصار . وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء • وعادت الغبرة حمراء . وجرت انهار الدم المنهمر . وسفر تلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر• فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث • وما الهب عذابات العذاب في تلك الجثث • وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث • وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذاوحساب من قتل فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده • وأما من أسر فلم تكف اطناب الخيم لقيده وشده• ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس • وهنالك العتاة عناة • والعداة عراة • وذوو الاسرة أسرى • وأولو الاثرة عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس . والرؤوس تحت الاخامص . ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص . فكم اصيد صيد . وقائد وقيد . ومشرك مكشر . وكافر مفكر . ومثلث منصف • ومكيف مكتف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • وملك مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب في الكبول • ومغتال في الغلول . وحر في الرق . ومبطل في يد المحق .

ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى اخذ صليب الصلبوت . واهلك دونه اهل الطاغوت . وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع . سجد له كل نصراني وركع . وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليها معبودهم ومسجودهم . وقد غلفوه بالذهب الاحمر . وكللوه بالدر والجوهر . واعدوه ليوم الروع المشهود . ولموسم عيدهم الموعود • فاذا اخرجته القسوس . وحملته الرؤوس . تبادروا اليه . واثالوا عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف . واخذه اعظم عندهم من اسر الملك وهو اشد مصاب لهم في ذلك المعترك . فان الصليب السليب ماله عوض . ولا لهم في سواه غرض والتأله له عليهم مفترض . فهو إلههم • وتعفر له جباههم . وتسبح له افواههم . يتغاشون عند احضاره . يتعاشون لابصاره . ويتلاشون لاظهاره . ويتغاضون اذا شاهدوه ، ويتواجدون اذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج . ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها . ويخشعون لها في بيوتهم

ويشهدونها • فلما اخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم . ووهت اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما . فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف احد من يومهم العصيب . فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر. والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

وندب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمانا . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . ونقلت اليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على اصحابها واموالها . وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها . وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها . وغادرت طبرية آهلة آمنة باهل الايمان . وعين لولايتها صارم الدين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الاخر بعد الفتح بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبتارية ، وقال : أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما اسيرا خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وامر بضرب اعناقهم . واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من اهل العلم والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامراء في السماطين

وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر . ومنهم من ابى ونبا وعذر . ومنهم من يضحك منه . ويذوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد انجزه . وحمد احرزه . واجر استدامه بدم اجراه . وبر اعنق اليه بعنق براه . ونصل خضبه . لنصر خطبه . واسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للاواء طواها • وكفر اماته لاسلام أحياه • وشرك هدمه لتوحيد بناه • وعزما مضاها • لامة ارضاها • وعدو قصمه • لولي عصمة • وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع اكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون • وتستبدل حركاتهم السكون • وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا •

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث مديلا للطيب • مزيلا للخبث • وسار عسكره • وثار عثيره • وظهرت راياته • وبهرت آياته • ونعرت كوساته • وصاحت بوقاته • وجالت خيوله • وسالت سيوله • وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصاته وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه • وحفرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاد الصلاب • وفصحت باعراب الحماحم صواهل الجياد العراب • والاسنة مشرعة • والأعنة مسرعة • وبحور السوابح متموجة وغدران السوابغ متدرجة • وبوارق البيارق متبرجة • وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة • ونزل عشية بأرض لوبية لداعي الفتح ملبيا • ولجيش النصر معبيا • ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا • وبات بها معرسا بانيا على عروس الظفر البكر • جانيا ثمار الاماني من غروس البيض

والسمر. وأصبح وقد اصحب جماح الدهر. وصح نجاح الأمر. وحص جناح الكفر. واسفر فجر الفرج وسفر وجه البهج. وسار سارا سره بارا بأرباب الدين بره. زائرة أسوده. طائرة بذوده. ظاهرة جذوه زاهرة جدوده. سامية أضواؤه. هامية أنواؤه. رائعة مواكبه. رائقة مراكبه. مجنبة عتاقه. فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يثري به. وهذا الأمير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج. وهو ذو شيبة تقد كالسراج وما برح مع الملك الناصر. مأثور المآثر. ميمون الصحبة. مأمون المحبة. مبارك الطلعة. مشاركا في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره. ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره. فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايرا. ورأيت السلطان له مشاورا محاورا. وأنا أسير معهما. وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما. ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى. وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها. وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعرها وسهلها. فلما قرب منها خيم وراء تلها. وآذنت عروش معاشر الشرك بثلها. وعقود معاقدي الكفر بحلها. وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه. ووقف كالأسد في عريسه. فخرج أهل البلد يطلبون الامان. ويبذلون الاذعان فامنهم وخيرهم بين المقام والانتقال. ووهب لهم عصمة الانفس والاموال. وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم. ويسبي ذريتهم ونسائهم. وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة. واغتنموا تلك المهلة. وفتح الباب للخاصة. واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة.

فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج. والفرج المحرج. كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون. وعندهم أنهم إذا نجوا بانفسهم انهم يغنمون. فترك معظمهم المدينة. وعندهم انه ما كسب السكينة. الا من ركب السفينة. وذلك ان الجند لما دخلوها. استولوا على الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار. وقال صاحبها كيف يصح المقام مع الأسد في غابه ولا مقام على زار. وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع.

ومواضع ورباع • فأخذها بما فيها من غلال ومتاع. ووهب عكا لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظره على الاحسن الاجمل • ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعة • ووصلنا فريضتها المنقطعة • وأعدنا الكنيسة العظمى مسجدا جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القاضي الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للاسلام بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فإنه تولى بها القضاء والخطابة ، وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة تلك الغابة ، وخلى سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ، ونبذوا ماحووه لمن حواها مانبذها ، وافتقر من الفرنج أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر ، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر ، لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لاستحليها ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل مخيما ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ، ولملكتها متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر ، بما أتاحه الله من النصر ، وقيضه له من افتضاض الفتح البكر ، فوصلت البشرى بوصوله باشرا ، واللواء الحمد ناشرا ، ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مباشرا ، وأنه فتح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتنمها غزوة ، وتسلمها حظوة ، فقصده من عساكرنا القصاد ، ووفد اليه من عندنا الوفاد ، فحباهم بالحباء من السبايا ، وآتاهم المرباع والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالنقود ، ووعدهم مما سيحصل بالنسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويستفيض حسنى وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويستزيل من الكفر يدا ، ويستميل الى الهدى هدى ، والدين بسيفه سيفه منصور ، والاسلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العادل مالك بعدله ، سالك نهج النجح بفضله ، فائز العزيمة حائز